مارية القبطية

السيدة الطاهرة المظلومة





موقع رؤى ومحاضرات الشيخ الحبيب

al-qatrah.net

 alqatrah@gmail.com

 @Sheikh_alHabib

 syalhabib

 +447999997975

 +441753355355

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلاةُ والسَّلامُ عَلىٰ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ
وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَلَعْنَةُ اللهِ عَلىٰ أَعْدائِهِمْ أَجْمَعِينَ

تقديم

هذا الكتيب مقتبس من كتاب (الفاحشة الوجه الآخر لعائشة) للشيخ الحبيب ويتضمن تفاصيل عن حياة سيدتنا أم إبراهيم مارية القبطية عليها السلام والبهتان الذي تعرضت له.

ومن الله نسأل القبول.

مارية.. السيدة الطاهرة المظلومة

لَكَمْ ظلم أصحاب السِّيَر والتاريخ من أهل الخلاف هذه السيدة الجليلة، فناهيك عن عدم اهتمامهم بتتبّع أحوالها وتقصيرهم في نقل كثير منها رغم أنها عاشت ما بعد النبي (صلى الله عليه وآله) فترة لا بأس بها؛ كان أكبر ظلم أوقعوه عليها أنهم حجبوا - غفلةً من بعضهم وتعمداً من الآخر - حقيقة كونها المعنية بحادثة الإفك الحقيقية.

إنها مارِيَة بنت شمعون القبطية أي المصرية، جارية عفيفة كريمة كان قد أهداها حاكم مصر وبَطْرَقُها الرومي جُريج بن مينا المقوقس في السنة السابعة من الهجرة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعدما وصله كتابه يدعوه فيه إلى الإسلام، فضنّ الرجل الخبيث بمُلكه ولم يقبل الإسلام فأهدى للنبي (صلى الله عليه وآله) ما أهدى، وكان من جملته مارية التي اصطفاها النبي (صلى الله عليه وآله) لنفسه، وأختها سيرين التي وهبها

شاعره حسّان ابن ثابت فأنجبت له ولده عبد الرحمن، وابن عمٍّ - أو أخ لهما على الاختلاف - اسمه مأبور أو جريح ، وحماراً أشهب يُدعى عُفيراً أو يعفور، وبغلة شهباء تُدعى دُلدُل، وألف مثقال ذهب، وعشرون ثوباً قبطياً.(١)

وتصرّح الروايات بأن مارية وسيرين لم تكونا جاريتيْن وضيعتيْن، بل كان لهما مقام سام ومنزلة عظيمة عند الأقباط، فهما من بنات الملوك، وقد أقرّت عائشة بذلك حيث روى عنها ابن كثير قولها: «أهدى ملك من بطارقة الروم يُقال له المقوقس جارية قبطية من بنات الملوك يُقال لها مارية».(٢)

كما أن ما جاء في رسالة المقوقس الجوابية للنبي (صلى الله عليه وآله) يؤكد ذلك، فقد كتب: «وبعثتُ إليك بجاريتيْن لهما مكانٌ في القبط عظيم».(٣)

---

(١) راجع عيون الأثر لابن سيد الناس ج ٢ ص٣٩٥

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص٦٠٣ عن أبي نعيم بسنده.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص٢٦٠

أما كيف غدت هاتان الفتاتان الشريفتان جاريتيْن عند المقوقس؛ فلعلّ ما يفسّر ذلك هو ما يُستظهر من بعض النصوص التاريخية من أن مارية وسيرين كانتا مؤمنتيْن موحّدتيْن على دين المسيح بن مريم (عليهما السلام) تبعاً لأبيهما شمعون الذي مناوئاً للمقوقس لأن هذا الأخير فرض نفسه ومذهبه بالقوة على الأقباط المصريين وذلك بالاستعانة بالامبراطور البيزنطي الروماني هرقل. وكان المقوقس قد خاض حروباً مع سائر أهل مصر فجّرها التباين المذهبي بين الطرفين، حيث كان المقوقس يسعى لفرض عقيدة نصرانية مختلفة عمّا يؤمن به أهل مصر، الأمر الذي يرجّح أن تكون معارضة شمعون له بدافع حرصه على حفظ الدين الأصلي للمسيح عليه السلام. ويبدو أن شمعون هذا قد قُتِل في إحدى هذه الحروب فسُبِيَت ابنتاه وصارتا جاريتيْن للمقوقس.[١]

---

(١) جاء في كتاب الفتح الإسلامي لمصر لأحمد عادل كمال ما حاصله أن الكنيسة النصرانية انشقّت إلى كنيستيْن، يعقوبية وملكانية، وكان المقوقس قد جاء بمذهب وسط بينهما هو المذهب الخلقيدوني بدعم من هرقل وبَطْرق القسطنطينية، فخاض إثر ذلك حرباً مع الأقباط المصريين لإجبارهم على مذهبه، ومَن كان يرفض كان يلقى عقاب الجلد أو القتل، ونصب هرقل المقوقس بطرقا لكنيسة الإسكندرية إلى جانب سلطته كحاكم، ورفض ذلك الأقباط المصريين واعتبروه بطرقاً غير شرعي، وكان من أولئك الرافضين بطبيعة الحال شمعون القبطي والد مارية عليها السلام.

وكيف كان فإن السيدة مارية كانت قد آمنت بالإسلام وهي في طريقها من مصر إلى المدينة، حين عرض عليها حاطب بن أبي بلتعة ذلك، [١] أي أنها أسلمت قبل أن تلقى نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ما يدلّل على إشراقة روحها ورجاحة عقلها.

وعلاوة على حُسن إسلامها؛ كانت مارية (عليها السلام) جميلة حسناء وضيئة، فحازت حُسن الدين كما حازت حُسن الخِلقة، الأمر الذي أعجب نبي الله (صلى الله عليه وآله) وجعل لها مكانة خاصة عنده. روى الواقدي بسنده عن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي صعصعة قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعجب بمارية القبطية، وكانت بيضاء جعدة جميلة (...) وكانت حسنة الدين».[٢]

ولئن أحبّ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) مارية؛ فإن نار الحسد والغيرة والحقد اشتعلت في قلب عائشة تجاهها! وذاك أمر طبيعي إذ متسافلُ الدرجاتِ يحسدُ مَنْ علا، فأين عائشة «قرن الشيطان ورأس

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص٢٦٠ والإصابة لابن حجر ج ٨ ص٣١١

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٥ 32ص٣٢٥ عن الواقدي.

الكفر» من مارية المؤمنة «حسنة الدين»! وأين عائشة حفيدة «عضروط بني تَيْم» من مارية «سليلة ملوك الأقباط»! وأين عائشة «الأدماء الحميراء القبيحة» من مارية «البيضاء الجعدة الجميلة»! ولذا تعترف عائشة بأنها لم تغر من أحدٍ من النساء كما غارت من مارية، فتقول: «ما غرتُ على امرأة إلا دون ما غرتُ على مارية، وذلك أنها كانت جميلة من النساء جعدة، وأُعجب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أنزلها أوّل ما قَدِمَ بها في بيتٍ لحارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان رسول الله عامة النهار والليل عندها، حتى فرغنا لها فجزعتْ! فحوّلها إلى العالية، فكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشدّ علينا! ثم رزق الله منها الولد وحرمنا منه»![١]

هكذا تفصّل عائشة أسباب غيرتها الشديدة من مارية، فهي أولا «جميلة من النساء جعدة»، ثم قد وقعت في قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله) موقع الإعجاب، فكان يقضي عامة نهاره وليله عندها وكأنه -

(١) طبقات ابن سعد ج ٨ ص٢١٢ والإصابة لابن حجر ج ٨ ص٣١١ وغيرهما. وفي رواية السمهودي في وفاء الوفاء ج ٣ ص٨٢٦ ورد لفظ: «حتى قذعنا لها» بدل «حتى فرغنا لها»! والقذع الشتم المشتمل على الفحش والقذف بما يقبح يذكره! أي أن عائشة وصويحباتها كِلْنَ الشتائم الشديدة للسيدة مارية (عليها السلام) حتى جزعت فأبعدها النبي (صلى الله عليه وآله) عنهن حتى ترتاح من ألسنتهن القذرة!

روحي فداه - كان يجد في ذلك متنفساً له من مؤامرات وتظاهرات وأذايا عائشة وأختها حفصة اللتين أشعلتا بيت النبوة بالفتن والتوتّرات والمشاكل!

وحيث كانت مارية في بادئ الأمر جارية لعائشة وصويحباتها إذ أنزلها رسول الله (صلى الله عليه وآله) منزل حارثة بن النعمان؛ فإنه لم تمضِ إلا أيام قلائل حتى بدأت الأذايا تتوجّه إليها! وذلك حين «تفرّغت» لها عائشة فكشّرت لها عن أنيابها حتى أرعبتها وجعلتها «تجزع»! وذلك قولها: «حتى فرغنا لها فجزعتْ»!

ويبدو أن هدف عائشة من حملتها هذه كان هو الهدف ذاته من حملاتها الأخريات على باقي نساء النبي صلى الله عليه وآله، حيث تدفع الأمور باتجاه التصادم حتى يطلّقهن النبي (صلوات الله عليه وآله) فترتاح وتخمد نار الغيرة والحقد في نفسها! غير أن مارية (عليها السلام) رغم براءتها وهدوئها وطيبة نفسها؛ كانت عاقلة راشدة تعرف كيف تتوكل على الله تعالى وتفوّض أمرها إليه وتتصرّف بما لا يؤذي بعلها سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله، وبهذا استطاعت أن تبقي لنفسها تلك المنزلة في قلب

هذا النبي العظيم الذي اضطر لأن ينقل محلّ سكنها إلى عالية المدينة - حيث سُمِّيَت لاحقاً بمشربة أم إبراهيم نسبةً إليها - حتى ترتاح المسكينة من رعب عائشة وأذاياها! و إن كانت ستعيش هناك في شيء من الوحدة.

ولم يكن ذلك قد أعجب عائشة أو أرضاها! بل لقد ضاعف من حقدها على مارية المظلومة لأن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يختلف إليها هناك رغم البُعد، فكان ذلك كما تقول عائشة: «أشدّ علينا»!

ثم بعد كل هذا.. تأتي ثالثة الأثافي التي تجعل من عائشة كالبركان الهائج غضباً وحقداً على مارية وحسداً لها وغيرةً منها! إذ يشاء الله تعالى أن يقرّ عين نبيّه الخاتم (صلى الله عليه وآله) بوليد عزيز هو إبراهيم (عليه السلام) من هذه السيدة المؤمنة الصابرة التي لم تدخل بيت النبوة إلا بالأمس القريب، فيما عائشة وصويحباتها - رغم سنين العشرة الطويلة - حرمهنّ الله تعالى من شرف أن ينجبن لنبيّه ولدا يدخل السرور على قلبه!

إن نساء النبي (صلى الله عليه وآله) قد غرن من مارية قبل وبعد إنجابها هذا الوليد المبارك، لديانتها وشرفها ونسبها وحُسنها وبهائها،

ولكن.. لم تبلغ بهن الغيرة مبلغ ما بعائشة! وذلك حديث مولانا الإمام أبي جعفر الباقر (صلوات الله عليه) الذي رواه المخالفون كابن سعد: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجب مارية، وكانت قد ثَقُلَت على نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغِرْنَ عليها، ولا مثل عائشة»!(١)

و إذا كانت كل هذه الغيرة قد توقّدت في صدر عائشة بسبب جمال مارية وضرْب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الحجاب عليها حيث اصطفاها لنفسه؛ فكيف يكون حال عائشة حين يبلغها نبأ أن مارية حامل؟!

إن مثل هذا النبأ لا يدع لنفس عائشة قرارا، وها هي بنفسها تعترف بأنها «جزعت» حين استبان لها حمل مارية من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد جاء في حديثها عنها: «فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ذات يوم يدخل خلوته، فأصابها فحملتْ بإبراهيم، فلمّا استبان حملها جزعتُ من ذلك»!(٢)

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص١٣٥

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص٦٠٣ والآحاد والمثاني للضحّاك ج ٥ ص٤٤٨

وهكذا هي عائشة؛ تجزع وتفزع حين ترى غيرها ينال خيراً لم تنله، فتغلي الضغائن في صدرها «كمِرْجَلِ القَيْن» كما عبّر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.(١)

وعندما بزغ نور إبراهيم (عليه السلام) بولادته الميمونة في ذي الحجة من السنة الثامنة؛ فرح به والده سيد الأنبياء (صلى الله عليه وآله) كما فرح به المسلمون واستبشروا، غير أن عائشة امتلأت غيظاً وحسداً واستشاطت حقداً وغيرةً فأبت إلا أن تفسد الفرحة بتشكيكها بشرف مارية (عليها السلام) وبصحة كون وليدها ابنًا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وذلك بادّعائها أنه ليس فيه شبهٌ منه!

روى الواقدي بسنده عن عروة عن عائشة قالت: «لمّا وُلِدَ إبراهيم جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم إليَّ، فقال: انظري إلى شبهه بي. فقلتُ: ما أرى شبهاً! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تريْنَ إلى

(١) نهج البلاغة برقم: ١٥٦، والمِرجَل: القِدْر، والقَيْن: الحدّاد، فالمعنى أن الضغينة التي تكون في صدر عائشة تغلي إلى درجة تصهر الحديد كما يصهره الحدّاد في قدره على النار!

بياضه ولحمه؟! فقلتُ: إنه من قَصُرَ عليه اللِّقاح ابْيَضَّ وسَمُن. وفي رواية آخرى: مَن سُقِيَ ألبان الضأن سَمُنَ وابْـيَضَّ»!(١)

روى الحاكم بسنده عن عروة عن عائشة قالت: «أُهدِيَت مارية إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعها ابن عمٍّ لها. قالت: فوقع عليها وَقعةً فاستمرّت حاملاً. قالت: فعزلها عند ابن عمّها. قالت: فقال أهل الإفك والزور: من حاجته إلى الولد ادّعى ولد غيره! وكانت أمةً قليلة اللّبن، فابتاعت له ضائنة لبون،(٢) فكان يُغَذّى بلبنها فحَسُنَ عليه لحمه. قالت عائشة رضي الله عنها: فدخل به عليَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فقال: كيف ترين؟ فقلتُ: من غُذِّيَ بلحم الضأن يَحْسُنُ لحمه. قال: ولا الشبه؟ قالت: فحملني ما يحمل النساء من الغيرة أنْ قلتُ: ما أرى شبهاً! قالت: وبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله ما يقول الناس، فقال لعلي: خُذ هذا السيف فانطلق فاضرب عُنُق ابن عمّ مارية حيث وجدتَه.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص١٣٧ عن الواقدي، وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص٨٧. ومعنى اللِّقاح هنا ذوات الألبان من الدواب في أول نِتاجها، وتقصد أنه من كان غذاؤه مقتصراً على ألبانها ابيضَّ وسَمُنَ.

(٢) الضائنة واحدة الضأن أي الغنم، واللبون أي التي فيها لبن.

قالت: فانطلق فإذا هو في حائط على نخلة يخترف رطباً،(١) قال: فلمّا نظر إلى علي ومعه السيف استقبلته رعدة. قال: فسقطت الخرقة فإذا هو لم يخلق الله عزّ وجل له ما للرجال، شيءٌ ممسوح ».(٢)

وروى الضحّاك وأبو نعيم قول عائشة في حديث عن إبراهيم عليه السلام: «فلم يكن لأمّه لبن، فاشترى (رسول الله) له ضائنةً لبوناً فغُذِّيَ منها الصبيُّ فصَلُحَ عليه جسمه وحَسُنَ لحمه وصفا لونه، فجاء به ذات يوم يحمله على عنقه فقال: يا عائشة؛ كيف ترينَ الشَّبَه؟ فقلتُ وأنا غَيْرى: ما أرى شبهاً! فقال: ولا اللحم؟! فقلتُ: لعمري فمن يُغَذَّى بألبان الضأن ليحسُنُ لحمُه»!(٣)

إن مما تلفتنا إليه مدلولات هذه الطائفة من الأحاديث التي رواها المخالفون أمور أهمّها:

(١) يخترف رطبا: يجني رطبا.

(٢) مستدرك الحاكم ج ٤ ص٣٩

(٣) الآحاد والمثاني للضحاك ج ٥ ص٤٤٨ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٥ ص٣٢٦ عن أبي نعيم.

● أن عائشة تعترف بأن غيرتها الشديدة حمَلَتها على الكذب بقولها أنها لا ترى شبهاً لإبراهيم بوالده رسول الله (صلى الله عليه وآله) وذلك قولها: «فقلتُ وأنا غَيْرى: ما أرى شبهاً.. فحملني ما يحمل النساء من الغيرة أنْ قلتُ: ما أرى شبهاً»! ومعلومٌ أن الكذب من الكبائر ولا ترفع الغيرةُ حرمتَه شرعاً فتصيّره حلالاً! كما ليس بوسع أحدٍ الاعتذار يوم القيامة بأنه قد كذب من باب الغيرة!

● أن نفي عائشة الشبه جاء بعدما أُشيعت الفرية على مارية (عليها السلام) بقول أهل الإفك والزور: «من حاجته إلى الولد ادّعى ولد غيره»! أي أن عائشة في واقع الأمر ضاهت قول أهل الإفك إذ ليس مقتضى نفي الشبه هاهنا إلا تأييد ما أشاعه المفترون من أن هذا الولد ليس ابناً لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بل هو ابن غيره! وسياق حديث عائشة يبيّن أنها رغم علمها بمقالة أهل الإفك فإنها لم تراعِ الظرف الحسّاس والخطير فاندفعت بحقدها وغيرتها إلى تأييد مقالتهم بقولها: «ما أرى شبهاً»! فكان مآل ذلك أن أمر النبي (صلى الله عليه وآله) أمير المؤمنين (عليه السلام)

بأن يتوجّه لقتل ابن عمّ مارية، أي أن مقالة عائشة أثّرت في نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) أثراً بالغاً!

● أن عائشة وصمت الذين افتروا على مارية بوصم: «أهل الإفك والزور» أي أن هؤلاء عُرِفوا بهذا العنوان الذي جاء في القرآن الحكيم بقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ». وليس في الأحاديث والروايات ذكرٌ لهذا العنوان إلا في طائفتيْن منها إحداهما ما تقدّم عن عائشة في قصة غزوة المريسيع ، والأخرى هي هذه في قصة مارية وابن عمّها، وإذ ظهر بطلان الأولى فتتعيّن الأخرى إذ لا ثالثة في البين.

وهذه هي النتيجة المنطقية لهذا البحث، فإن الباحث إذا ما أراد معرفة سبب ومناسبة نزول آيات الإفك في كتاب الله تعالى فلا بد له من التوجّه إلى السيرة والتاريخ ، فيجد قضيّتين مُدّعاتيْن في هذا الشأن، الأولى الإفك على عائشة، والثانية الإفك على مارية. وإذ تواجهه في القضية الأولى إشكالات وتعارضات ليس لها حل. إلا بطلان القضية المدّعاة؛ فلا مناص له من التمسك بالقضية الثانية، وهي بالأصل أحرى بذلك لأنها سليمة من الإشكالات ومواطن التهافت والخلل، بخلاف الأولى.

كما أنها قضية الإفك على مارية أقرب إلى انطباق ما ورد في الآيات عليها وهي أبعد عن الانطباق على قضية عائشة كما بيّناه مفصّلا في الإيراد السابع ، فإن الآيات تصف المقذوفة بالمؤمنة المحصَنة الغافلة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقد مرّ عليك أن الكتاب والسنة نفيا إيمان عائشة من رأس، كما يبعد أن تكون غافلة وهي المعروفة بتتبّعها كل شاردة وواردة في الحياة العامة، وأما كونها محصَنة - بمعنى العفيفة - فهذا الكتاب يتكفّل لك في الحقائق الواردة فيه بالرد! فتريّث لتقف على حديث «رضاع الكبير» وترقّب لترى حديث «تشويف الجواري» وتربَّص لتسمع حديث «الثوب المُعَصْفر» ثم احبس الأنفاس لحديث «الجِرار الخُضر» ثم اشدُد قلبك لحديث «ما جرى في الطريق إلى البصرة»!

أما أم إبراهيم (عليهما السلام) فتنطبق عليها صفة الإيمان وهي التي حسُن إسلامها ولم يثبت لها القرآن أو السنة أو التاريخ معصية واحدة أو إيذاءً واحداً لرسول الله صلى الله عليه وآله، بل كانت له على الدوام مورداً للسرور والبهجة والراحة بديانتها وورعها وسموّ أخلاقها وطيب

عشرتها. ويكفيك أن تتأمّل في أنها رغم ما لاقته من ظلم وبهتان وشتائم وأذايا جاءت بها عائشة باعترافها في الأحاديث السابقة؛ إلا أنها لم تكن تردّ ولم تكن تقابل كل ذلك بالمثل! وهذا لعمري دليل الإيمان ونقاء السريرة. وقد حباها الله تعالى بأن تُنجب لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ولده وفلذة كبده إبراهيم عليه السلام، فيما حرم عائشة وأضرابها من ذلك! فإنْ لم يكن هذا الاختيار الرباني لها وتشريفها بأن تكون أماً لولد النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) دليلاً على إيمانها الظاهري والباطني فماذا يكون الدليل؟

ولا نظن أحداً يناقش في كون مارية (عليها السلام) من المحصَنات الغافلات، إذ السيرة تشهد بذلك حيث كانت هذه السيدة الجليلة جليسة دارها في عالية المدينة، بعيدة عن مواطن الاجتماع والقيل والقال، وظلّت كذلك حتى بعد استشهاد النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، في أروع صورة من صور الخدر والعفاف والالتزام بحكم الله تعالى حيث قال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾. فلا كلام في أنها كانت غافلة عمّا رُمِيَت بها من الإفك والزور، سيّما أنها كانت غريبة

عن أهل هذه البلاد إذ هي قبطية وغيرها عرب، واختلاف اللغة والثقافة يباعد عادةً بين الطرفين ويقلّل التواصل الاجتماعي، كما لا كلام في أنها من المحُصَنات العفيفات الشريفات، بل هي في ذلك مضرب المثل ومفخرة الأُوَلْ.

هذا وقد تصدّر آيات الإفك قوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾، وعلمتَ في الإيراد السابع أن ذلك لا ينطبق على الذين زعمت عائشة أنهم قذفوها، لأن العصبة هي الجماعة المتعصّبة المتعاضدة، وأولئك ما كانوا على هذه الصفة مطلقاً. أما الذين قذفوا مارية عليها السلام؛ فسترى بعد قليل إن شاء الله أن هذه الصفة تنطبق عليهم تماماً.

وكذا علمتَ في الإيراد السابع أنه يُستظهر من آيات الإفك أن الفئة التي تولّت أمر بثّ الإفك كان لها من الثقل والتأثير ما جعل فئة أخرى تخضع لها فتتلقّى قولها بالقبول دون الإنكار، وكلا الفئتيْن ذُمَّتا ووُجِّهَ إليهما خطاب اللوم والتقريع . والذين زعمت عائشة أنهم قذفوها ما

كانوا من ذوي الجاه والثقل والتأثير، أما الذين قذفوا مارية فكانوا كذلك على ما ستعرف إن شاء الله تعالى.

فالحاصل أن ما ورد في آيات الإفك أقرب إلى قضية السيدة الجليلة أم إبراهيم عليهما السلام، وعلاوة على هذا فإنها سليمة من الخلل والاضطراب.

أما القصة الكاملة لهذه القضية وتفاصيلها الدقيقة فنجدها في روايات أئمة آل محمد (صلوات الله عليهم) الذين كشفوا لنا أسماء تلك «العصبة» التي جاءت بالإفك على السيدة مارية عليها السلام، وهي

الأسماء التي أخفتها روايات أهل الخلاف فلم تذكر حتى واحداً منها رغم عِظَم القضية وخطورتها![1]

روى الصدوق بسنده عن عامر بن واثلة قال: «كنت في البيت يوم الشورى فسمعتُ عليا عليه السلام وهو يقول: استخلف الناس أبا بكر وأنا والله أحق بالأمر وأولى به منه، واستخلف أبو بكر عمر وأنا والله أحق بالأمر وأولى به منه - إلى أن قال: - إن عائشة قالت لرسول الله صلى

(١) لاحظ مثلاً ما رواه مسلم في صحيحه ج ٨ص١١٩ عن أنس قال: «إن رجلاً كان يُتَّهم بأم ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: اذهب فاضربْ عنقه. فأتاه علي فإذا هو في رَكِيٍّ يتبرّدُ فيها، فقال له علي: اخرج ، فناوله يده فأخرجه، فإذا هو مجبوب ليس له ذكر، فكفّ عليٌّ عنه ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنه لمجبوب ما له ذكر».

وما رواه الحاكم في مستدركه ج ٤ ص٣٩ عن أنس قال: «إن أم إبراهيم كانت تُتَّهمُ برجل، فأمر النبي صلى الله عليه وآله بضرب عنقه، فنظروا فإذا هو مجبوب».

وما رواه الطبراني في معجمه ج ٤ ص٨٩عن أنس قال: «كانت سُرِّيَةُ النبي صلى الله عليه وسلم أم إبراهيم في مشربة لها، وكان قبطي يأوي إليها ويأتيها بالماء والحطب، فقال الناس في ذلك: علجٌ يدخل على علجة! فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل علي بن أبي طالب فأمره بقتله، فانطلق فوجده على نخلة فلمّا رأى القبطي السيف مع علي وقع فألقى الكساء الذي كان عليه واقتحم فإذا هو مجبوب، فرجع علي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله؛ أَرأيتَ إذا أمرتَ أحدنا بأمر ثم رأى غير ذلك أَيراجعك؟ قال: نعم. فأخبره بما رأى من القبطي. قال: فولدت أم إبراهيم إبراهيم، فكان النبي صلى الله عليه وسلم منه في شكٍّ حتى جاءه جبريل عليه السلام فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم. فاطمأنَّ إلى ذلك»!

وهذا التغييب المتعمّد لأسماء الذين رموا مارية يُشعر بأن لهم عند المخالفين منزلة في الإكبار توجب ذلك!

الله عليه وآله: إن إبراهيم ليس منك و إنه ابن فلان القبطي! قال: يا علي؛ اذهب فاقتله. فقلتُ: يا رسول الله؛ إذا بعثتني أكونُ كالمسمار المحميّ في الوبر أو أتثبّتُ؟ قال: لا؛ بل تثبّتْ. فذهبتُ فلمّا نظر إليَّ استند إلى حائط فطرح نفسه فيه، فطرحتُ نفسي على أثره، فصعد على نخلٍ وصعدتُ خلفه، فلمّا رآني قد صعدتُ رمى بإزاره فإذا ليس له شيء مما يكون للرجال، فجئتُ فأخبرتُ رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: الحمد لله الذي صرف عنا السوء أهل البيت».(١)

وروى علي بن إبراهيم القمّي بسنده عن زرارة قال: «سمعتُ أبا جعفر (الباقر) عليهما السلام يقول: لمّا ماتَ إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله حزن عليه حزناً شديداً، فقالت عائشة: ما الذي يُحزنكَ عليه

(١) الخصال للصدوق ص٥٦٣ ويُعرف هذا بحديث المناشدة، ونحوه عند المخالفين في مسند البزّار ج ٢ ص٢٣٧عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال: « كثُر على مارية أم إبراهيم رضي الله عنها في قبطيٍّ ابن عمٍّ لها، كان يزورها ويختلف إليها، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ هذا السيف فانطلق، فإن وجدته عندها فاقتله. قلت: يا رسول الله، أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحماة لا يثنيني شيء حتى أمضي لما أمرتني به أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال : بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فأقبلتُ متوشح السيف فوجدته عندها، فاخترطتُ السيف، فلمّا رآني أقبلتُ نحوه تخوّف أنني أريده فأتى نخلة فرقى فيها، ثم رمى بنفسه على قفاه، ثم شغر برجله، فإذا به أجبُّ أمسح ما له قليل ولا كثير، فغمدتُ السيف ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرته فقال: الحمد لله الذي يصرف عنّا أهل البيت».

فما هو إلا ابن جريح ![1] فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وأمره بقتله، فذهب علي عليه السلام إليه ومعه السيف، وكان جريح القبطي في حائط، وضرب علي عليه السلام باب البستان فأقبل إليه جريح ليفتح له الباب، فلما رأى عليا عليه السلام عرَف في وجهه الغضب فأدبر راجعاً ولم يفتح الباب، فوثب علي عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتّبعه وولّى جريح مدبراً، فلما خَشِيَ أن يرهقه صعد في نخلة وصعد علي عليه السلام في أثره، فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا ما للنساء، فانصرف علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله؛ إذا بعثتني في الأمر أكونُ فيه كالمسمار المحمي في الوبر أم أثبّتُ؟ قال: فقال: لا؛ بل اثبّتْ. فقال: والذي بعثك بالحق ما له ما للرجال ولا ما للنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحمد لله الذي يصرف عنا السوء أهل البيت».[2]

وروى الحسين بن حمدان الخصيبي ومحمد بن جرير الطبري بسنده عن محمد بن إسماعيل الحسني عن أبي محمد الحسن العسكري (عليه

---

(١) ويُحتمل أن تُقرأ: جُريج .

(٢) تفسير القمي ج ٢ ص٩٩

السلام) في حديث عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) أنه قال: «هل علمتم ما قد رُمِيَت به مارية القبطية وما ادُّعِيَ عليها في ولادتها إبراهيم بن رسول الله؟ قالوا: لا يا سيدنا أنت أعلم، فخبِّرنا لنعلم. قال: إن مارية لما أُهْدِيَت إلى جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أُهدِيَت مع جَوارٍ قسَّمهنّ رسول الله على أصحابه، وظنّ بمارية من دونهنّ،(١) وكان معها خادم يقال له جريح يؤدبها بآداب الملوك، وأسلمت على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وأسلم جريح معها، وحسن إيمانهما و إسلامهما، فملكت مارية قلب رسول الله صلى الله عليه وآله، فحسدها بعض أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله، وأقبلت عائشة وحفصة تشكوان إلى أبويهما ميل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مارية و إيثاره إياها عليهما، حتى سوّلت لأبويهما أنفسهما أن يقولا: إن مارية إنما حملت بإبراهيم من جريح ! وكانوا لا يظنون جريحا خادماً زمنا. فأقبل أبواهما إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو جالس في مسجده، فجلسا بين يديه، وقالا: يا رسول الله؛ ما يحِلُّ لنا ولا يسعنا أن نكتمك ما ظهرنا عليه من خيانة واقعة بك. قال: وماذا

(١) أي أنه (صلى الله عليه وآله) اختارها لأنه رجى أن تكون أمّا لولده، فالظَّنون من النساء هي التي لها شرف تُتزوّجُ طمعاً في ولدها كما ذكره ابن منظور في لسان العرب مادة (ظنن).

تقولان؟! قالا: يا رسول الله؛ إن جريجاً يأتي من مارية الفاحشة العظمى! وإن حملها من جريح وليس هو منك يا رسول الله! فأربدَ وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وتلوَّنَ لعِظَمِ ما تلقَّياهُ به، ثم قال: ويحكما ما تقولان؟! فقالا: يا رسول الله؛ إننا خلّفنا جريجاً ومارية في مشربة[١] وهو يفاكهها ويلاعبها ويروم منها ما تروم الرجال من النساء! فابعث إلى جريح فإنك تجده على هذه الحال، فأنفِذْ فيه حكمك وحكم الله تعالى. فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا أبا الحسن؛ خذ معك سيفك ذا الفقار، حتى تمضي إلى مشربة مارية، فإن صادفتها وجريجا كما يصفان فاخمدهما ضربا. فقام علي واتشح بسيفه وأخذه تحت ثوبه، فلمّا ولّى ومرَّ من بين يدي رسول الله أتى إليه راجعا، فقال له: يا رسول الله؛ أكونُ في ما أمرتني كالسكّة المُحماةِ في النار أو الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: فديتك يا علي، بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. قال: فأقبل علي عليه السلام وسيفه في يده حتى تسوّر من فوق مشربة مارية، وهي جالسة وجريح معها، يؤدّبها بآداب الملوك، ويقول لها: أعظمي رسول الله وكنّيه وأكرميه. ونحو من هذا الكلام. حتى نظر جريح إلى

---

(١) المشربة: الغرفة.

أمير المؤمنين وسيفه مُشْهَرٌ بيده، ففزع منه جريح ، وأتى إلى نخلة في دار المشربة فصعد إلى رأسها، فنزل أمير المؤمنين إلى المشربة، وكشف الريح عن أثواب جريح ، فانكشف ممسوحا. فقال: انزل يا جريح . فقال: يا أمير المؤمنين؛ آمَنُ على نفسي؟ قال: آمن على نفسك. قال: فنزل جريح ، وأخذ بيده أمير المؤمنين، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأوقفه بين يديه، وقال له: يا رسول الله، إن جريحا خادم ممسوح . فولّى النبي بوجهه إلى الجدار، وقال: حُلَّ لهما لعنهما الله يا جريح واكشف عن نفسك حتى يتبَيَّن كذبهما، ويحهما ما أجرأهما على الله وعلى رسوله! فكشف جريح عن أثوابه فإذا هو خادم ممسوح كما وصف. فسقطا بين يدي رسول الله وقالا: يا رسول الله التوبة! استغفر لنا فلن نعود! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تاب الله عليكما! فما ينفعكما استغفاري ومعكما هذه الجرأة على الله وعلى رسوله؟! قالا: يا رسول الله؛ فإن استغفرت لنا رجوْنا أن يغفر لنا ربنا! فأنزل الله الآية بهما وفي براءة مارية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾».[١]

إذن.. آيات الإفك في سورة النور نزلت في مارية لا في عائشة حسب ما نطق به أئمة أهل بيت الوحي (صلوات الله عليهم) ولذا يقول علي ابن إبراهيم القمي (رضوان الله تعالى عليه) في تفسيره: «وأما قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فإن العامة رووا أنها نزلت في عائشة وما رُمِيَت به في غزوة بني المصطلق من خزاعة، وأما الخاصة فإنهم رووا أنها نزلت في مارية القبطية وما رمتها به عائشة».[٢]

إن هذه الأحاديث الشريفة تكشف لنا أن أربعةً اجتمعوا على قذف أم إبراهيم (عليهما السلام) وهم أبو بكر وعمر وعائشة وحفصة، وهذا ما يوافق الآيات الكريمات حين وصفت الذين جاءوا بالإفك بالعصبة، فإن هؤلاء الأربعة كانوا في الواقع «جماعة متعصّبة متعاضدة» ويصدق

(١) الهداية الكبرى للخصيبي ص٢٩٧ ودلائل الإمامة للطبري الإمامي ٣٨٥ وعنه في تفسير البرهان للبحراني ج ٣ص١٢٩

(٢) تفسير القمي ج ٢ ص٩٩

عليهم ذلك كما يعرفه القاصي والداني، وفيه إشعار بأن الإفك جاء من هذه العصبة بشكل مخطّطٍ له ومقصود لا أنه كان عابراً، وقد أشار إلى ذلك المجدّد الثاني في تفسيره إذ قال: «ولعلّ الإتيان بهذه الخصوصية لإفادة أن الإفك إنما كان وليد جماعة ذات هدف واحد، فليس كلاماً قاله مغرض، وإنما حركة مقصودة ضد الرسول صلى الله عليه وآله».(١)

كما أن هؤلاء الأربعة كان لهم من الثقل والتأثير في المجتمع آنذاك ما لا يخفى لمكانهم الظاهري من رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتلاءم هذا مع مدلول الآيات كما تقرّر آنفاً. فالنتيجة أن الآيات أقرب إلى الانطباق على القصة المروية في شأن مارية عليها السلام.

غير أنه قد يشكل على ذلك أن المستفاد من أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) أن عائشة كانت رأس الإفك بقذفها مارية ونفيها بنوّة إبراهيم لرسول الله صلى الله عليه وآله، فكيف تأتي الآيات بصيغة التذكير للذي تولّى كِبره في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟

---

(١) تقريب القرآن للمجدد الشيرازي الثاني أعلى الله درجاته ج ٣ ص٦٨٥

والجواب؛ أن من سنن العرب تذكير ما حقّه التأنيث والعكس من باب حمل اللفظ على المعنى كما نصّ عليه الثعالبي في فقه اللغة،[١] ولهذا أمثلة كثيرة في كتاب الله تعالى كقوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا﴾[٢] فذكّر المئة مع أنها مؤنّثة حملاً على معنى الأشخاص أو المقاتلين الصابرين، وكقوله: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾[٣] فذكّر الشفاعة مع أنها مؤنّثة حملاً على معنى طلب الشفاعة، وكقوله: ﴿لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾[٤] فذكّر المعذرة مع أنها مؤنّثة حملاً على معنى فعل الاستعذار، وكقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[٥] فذكّر الساعة مع أنها مؤنّثة حملاً على معنى الوقت، وكقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[٦] فأنّث السعير مع أنه مذكّر حملاً على معنى النار. وممّا ورد في القرآن التذكير والتأنيث للفظ

(١) فقه اللغة للثعالبي الفصل٢٥ ص٣٦٥

(٢) الأنفال: ٦٧

(٣) البقرة: ٤٩

(٤) الروم: ٥٨

(٥) الشورى: ١٨

(٦) الفرقان: ١٢ - ١٣

واحد مثل الطاغوت إذ ذكّره بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾(١) كما أنّثه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾(٢) والأمثلة كثيرة لا تُحصى، إذ هي لغة العرب وبها جاء كتاب الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إنما يجري هذا المجرى وهو من هذا القبيل، فإنه و إنْ كانت المقصودة فيه عائشة إلا أنه جاء بصيغة التذكير حملاً على معنى أكبرِ العصبة في الإفك والافتراء. وما الحمل على المعنى في صيغة التذكير أو التأنيث إلا من أساليب البلاغة، لأن تقديم المعنى على اللفظ في ذلك إلفاتاً إلى عِظَمه حتى كأن اللفظ قد اضمحلّ فيه.

ومن هذا القبيل أيضاً - وهو متعلق بموضوعنا - ما رُوي بشأن نزول قوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ في عائشة لمّا قذفت مارية عليها السلام، حيث جاءت الآية بصيغة التذكير أيضاً.

(١) النساء: 61

(٢) الزمر: 18

قال علي بن إبراهيم القمي في تفسيره: «وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[١] فإنها نزلت في مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام، وكان سبب ذلك أن عائشة قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله: إن إبراهيم ليس هو منك و إنما هو من جريح القبطي إنه يدخل إليها في كل يوم! فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وقال لأمير المؤمنين عليه السلام: خذ السيف وائتني برأس جريح ، فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام السيف ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله؛ إنك إذا بعثتني في أمر أكون فيه كالسفود المحماة[٢] في الوبر فكيف تأمرني؟ أثبّتُ فيه أو أمضِ على ذلك؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: بل تثبَّتْ. فجاء أمير المؤمنين عليه السلام إلى مشربة أم إبراهيم فتسلّق عليها، فلما نظر إليه جريح هرب منه وصعد النخلة، فدنا منه أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: انزل! فقال له: يا علي؛ اتّق الله ما هاهنا أناس،[٣] إني مجبوب! ثم كشف عن عورته

---

(١) الحجرات: ٧

(٢) السفود: الحديدة المحميّة. كناية عن الإسراع في التنفيذ.

(٣) ويُحتمل أن تكون: بأس.

فإذا هو مجبوب. فأتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ما شأنك يا جريح ؟ فقال: يا رسول الله إن القبط يجبّون حشمهم[(١)] ومَن يدخل إلى أهليهم، والقبطيون لا يأنسون إلا بالقبطيين، فبعثني أبوها لأدخل إليها وأخدمها وأؤنسها. فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ..﴾ الآية».[(٢)]

فإنْ قلتَ: إن المتضافر أن الآية نزلت في قضية الفاسق الوليد بن عقبة فكيف تكون قد نزلت في قضية افتراء عائشة على مارية؟ قيل لك: مُضافاً إلى ما هو معلوم من أن القرآن نزل بمجموعه ليلة القدر دفعة واحدة ثم نزل نجوماً بعد ذلك؛ فقد دلّت الأخبار والآثار على أن بعض آيات الكتاب الحكيم نزلت في أكثر من مناسبة بعين ألفاظها لتندرج تلك الوقائع تحتها كمصاديق فيتسبّب هذا التكرار في النزول في ترسيخ المعنى وتوكيده. كما دلّت الأخبار والآثار على أن بعض الآيات لها أكثر من

(١) الحشم: الخدم.

(٢) تفسير القمي ج ٢ ص٣١٩، ولا يقدح في الرواية اختلافها عن باقي الروايات ببعض الفروقات اليسيرة كأن جريحاً هو الذي كشف عن ثوبه أو أن والد مارية قد بعثه إليها ليخدمها، فإنها رواية منقولة بالمعنى وهي من لفظ علي بن إبراهيم القمي، فلا تغفل.

مُراد، وهو ما عُبِّرَ عنه في مقام التمييز بالتفسير والتأويل، والظاهر والباطن.

وهذه الآية ليست بخارجة عن هذا الوِزان، ففي ذيل رواية عن أبي جعفر الباقر (صلوات الله عليه) في بيان قصة الإفك على مارية جاء: «فتهلّل وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: الحمد لله الذي لم يزل يعافينا أهل البيت من سوء ما يلطّخونا. فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ..﴾ الآية. قال زرارة لأبي جعفر عليه السلام: إن العامة يقولون: نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فأخبره عن بني خزيمة أنهم كفروا بعد إسلامهم؟ فقال عليه السلام: يا زرارة؛ أَوَ ما علمتَ أنه ليس من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن؟ فهذا الذي في أيدي الناس ظهرها، والذي حدّثتك به بطنها. ولمّا نهاهم الله سبحانه عن اتّباع قول الفاسق وأمرهم بالتثبّت في الأمر؛ نبّههم على أن فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأن أخبار الأرض والسماء عنده، فخذوا عنه ودعوا قول الفاسق».[1]

---

(١) تأويل الآيات لشرف الدين الحسيني النجفي ج ٢ ص٦٠٤

بقي هنا إشكالان في معرض قصة الإفك على أم إبراهيم عليها السلام:

الأول؛ أنه كيف أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بقتل الخادم بمجرّد اتهام عائشة وعُصبتها له ولمارية قبل أن يتحرّى ويتثبّت حيث لا يجوز الحكم قبل البيّنة بأربعة شهود عدول أو الإقرار من الزاني؟ بل كيف أمر بالقتل مع أنه على فرض ثبوت الدعوى فالحكم لا يكون إلا الجلد أو الرجم في جريمة الزنا؟

وجوابه؛ هو جواب إمامنا الصادق (صلوات الله عليه) الذي بيّن أنه (صلى الله عليه وآله) لم يكن يُرِدْ القتل حقيقة و إنما أراد إظهار براءة الخادم المظلوم وأن يستيقظ ضمير عائشة لترجع عن غيّها وبهتانها حيث ترى أن رجلاً مسلماً على وشك أن يُقتل ظلماً، فما رجعت الحميراء ولا استيقظ لها ضمير!

روى علي بن إبراهيم القمي بسنده عن عبد الله بن بكير قال: «قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: جُعلت فداك؛ كان رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتل القبطي وقد عَلِمَ أنها قد كذبت عليه أو لم يعلم و إنما دفع

الله عن القبطي بتثبّت علي عليه السلام؟ فقال: بلى؛ قد كان والله أعلم، ولو كانت عزيمة من رسول الله صلى الله عليه وآله القتل ما رجع علي عليه السلام حتى يقتله، ولكن إنما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله لترجع عن ذنبها، فما رجعتْ ولا اشتدّ عليها قتل رجل مسلم بكذبها»!(١)

وقد وافق هذا الجواب ابن حزم من المخالفين من وجه أنه (صلى الله عليه وآله) لم يكن يقصد القتل بل أراد إظهار براءة الخادم وكذب التهمة، فقال: «ومعاذ الله أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل أحدٍ بظنٍّ بغير إقرار أو بيّنة أو علم مشاهدة أو وحي، أو أن يأمر بقتله دونها، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم يقينا أنه بريء وأن القول كذب، فأراد عليه السلام أن يوقِفَ على ذلك مشاهدةً، فأمر بقتله لو فعل ذلك الذي قيل عنه، فكان هذا حكماً صحيحاً فيمن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد علم عليه السلام أن القتل لا ينفذ عليه لما يظهر الله تعالى من براءته. وكان عليه السلام في ذلك كما أخبر به عن أخيه سليمان عليه السلام، وقد روينا من طريق البخاري نا أبو اليمان - هو الحكم بن نافع -

(١) تفسير القمي ج ٢ ص٣١٩ وعنه بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٢٢ ص١٥٤

أنا شعيب - هو ابن أبي حمزة - نا أبو الزناد قال: إن عبد الرحمن الأعرج حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مثلي ومثل الناس - فذكر كلاماً - وفيه أنه عليه السلام قال: وكانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك! وقالت الاخرى: إنما ذهب بابنك! فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان عليه السلام فأخبرتاه فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى. قال أبو هريرة: والله أن سمعت بالسكين إلا يومئذٍ وما كنّا نقول الا المدية. قال أبو محمد (ابن حزم) رحمه الله: فبيقين ندري أن سليمان عليه السلام لم يُرِدْ قطّ شق الصبي بينهما، و إنما أراد امتحانهما بذلك، وبالوحي فعل هذا بلا شك، وكان حكم داود عليه السلام للكبرى على ظاهر الأمر لأنه كان في يدها، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أراد قطّ إنفاذ قتل ذلك المجبوب لكن أراد امتحان علي في انفاذ أمره وأراد إظهار براءة المتهم وكذب التهمة عياناً. وهكذا لم يُرِدِ الله تعالى

إنفاذ ذبح إسماعيل بن ابراهيم صلى الله عليهما وسلم إذ أمر أباه بذبحه، لكن أراد الله تعالى إظهار تنفيذه لأمره».(١)

الثاني؛ أنه كيف لم يجرِ النبي (صلى الله عليه وآله) حدّ القذف على عائشة وعُصبتها مع ثبوته عليها برميها أم إبراهيم (عليهما السلام) بالإفك؟

وجوابه؛ أنه بعد الفراغ من أن النبي (صلى الله عليه وآله) وهو صاحب الولاية العظمى له أن يدرأ أو يعطّل الحدّ أو القصاص عمّن شاء للمصلحة الأهم، كما فعل مع خالد ابن الوليد (لعنه الله) في قصة بني جذيمة وكما فعل مع الذين راموا قتله بإلقائه من العقبة؛(٢) فإن إمامنا الباقر (صلوات الله عليه) كشف اللثام عن أن الحدّ على عائشة لم يسقط

(١) المحلّى لابن حزم ج ١١ ص٤١٤ ولا نلتزم بكل ما جاء فيه كما هو معلوم.

(٢) سبق التعرّض لقصة العقبة في هامش ص١٦٥ من كتاب الفاحشة الوجه الآخر لعائشة، فراجع . ولمّا قيل للنبي صلى الله عليه وآله: «يا رسول الله أَفَلا تأمر بقتلهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». راجع السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص٣٤. وأما قصة خالد مع بني جذيمة فأشهر من أن تُذكر، وفيها تبرّأ النبي (صلى الله عليه وآله) من فعله.

بل أُخِّرَ إلى زمان القائم (صلوات الله عليه وعجّل الله فرجه) حيث سَتُرَدُّ إليه فيجلدها.(١)

روى البرقي والصدوق بسندهما عن عبد الرحيم القصير قال: «قال لي أبو جعفر عليه السلام: أما لو قد قام قائمنا عليه السلام لقد رُدَّتْ إليه الحميراء حتى يجلدها الحدّ وحتى ينتقم لابنة محمد صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام منها. قلتُ: جُعِلت فداك؛ ولِمَ يجلدها الحدّ؟ قال: لفريتها على أم إبراهيم عليهما السلام. قلتُ: فكيف أخَّرَه الله للقائم؟

(١) و إني قد سألتُ الله تعالى أن يأذن لي مولاي صاحب الأمر (عليه السلام) زمان ظهوره الشريف بأن أكون الذي يجري عليها الحدّ فيجلدها، وألتمس من إخواني المؤمنين أن يؤمّنوا على دعائي هذا.

فقال: لأن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمة، وبعث القائم عليه السلام نقمة».[١]

وأما بقية العصبة كأبي بكر وعمر فقد ورد في الأحاديث الشريفة أنهما يُردّان أيضاً في زمان القائم (عليه السلام) فيقرّرهما جرائمهما ويقتصّ منهما بإقامة حدّ الحرابة عليهما صلباً،[٢] ولا محالة أن قذفهما لمارية (عليها السلام) سيكون من بينها.

(١) المحاسن لأحمد بن محمد بن خالد البرقي ج ٢ ص٢٣٩ وعلل الشرايع للصدوق ج ٢ ص٥٨٠. وقوله عليه السلام: «وبعث القائم عليه السلام نقمة» معناه أن الله تعالى جعل للقائم (عليه السلام) أن ينتقم من الظالمين والكافرين فيجري عليهم الحدود والقصاص والعقاب، ولم يكن ذلك قد جُعِلَ لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في كثير من الموارد لأجل وجوب المداراة عليه كي يتشيّد الدين ويَسْلَمَ في بداية تأسيسه من الفتن الداخلية، وهذه هي النكتة في امتناعه (صلى الله عليه وآله) عن قتل أصحابه الذين راموا قتله غيلةً في العقبة وكذا المنافقين أمثال عبد الله بن أُبي بن سلول حيث جاء في صحيح البخاري ج ٦ ص٦٧ أنه قال لما دُعِيَ لقتله قال: «لا يتحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

وهذه الوظيفة التي أوجبها الله تعالى على نبيّه (صلى الله عليه وآله) في الإعراض عن المجرمين والمنافقين يشير إليها قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾. النساء: ٦٤

(٢) حدّ الحرابة هو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. المائدة: ٣٤

والأحاديث الشريفة في هذا المعنى مستفيضة، منها رواية الحسين ابن حمدان الخصيبي عن المفضل بن عمر في حديث طويل قال فيه الصادق (عليه السلام) في وصف اقتصاص المهدي (عليه السلام) من أبي بكر وعمر: «ثم يأمر بإنزالهما فيُنزلا إليه فيحييهما بإذن الله تعالى ويأمر الخلائق بالاجتماع، ثم يقصّ عليهم قصص فعالهما في كل كَوْر ودور (...) كل ذلك يعدّده عليه السلام عليهما، ويلزمهما إياه فيعترفان به ثم يأمر بهما فيقتص منهما في ذلك الوقت بمظالم من حضر، ثم يصلبهما على الشجرة و يأمر نارا تخرج من الارض فتحرقهما والشجرة ثم يأمر ريحاً فتنسفهما في اليَمِّ نسفاً. قال المفضّل: يا سيدي ذلك آخر عذابهما؟ قال: هيهات يا مفضّل! والله ليَرِدَنَّ وليحضُرَنَّ السيّد الأكبر محمد رسول الله صلى الله عليه وآله والصدّيق الأكبر أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام وكل من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً، وليقتَصَّنَّ منهما لجميعهم حتى أنهما ليُقْتَلان في كل يوم وليلة ألف قتلة! ويُرَدّان إلى ما شاء ربهما».(١)

(١) الهداية الكبرى للخصيبي ص٤٠٠ ومختصر بصائر الدرجات للشيخ حسن بن سليمان الحلي ص١٨٩ وبحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٥٣ ص١٢

ولا يخفى أن حفصة مشمولة بنصّه (عليه السلام) على أن كل من «محض الكفر محضاً» يرجع ويُرَدّ، فالحاصل أن جميع من رمى مارية (عليها السلام) بالإفك لم يسقط عنه الحدّ و إنما أُخِّرَ من الله الحكيم إلى ذلك الزمان.

بهذا تكون القصة الحقيقية للإفك قد اتضّحت لنا بأبعادها وتفاصيلها طبقاً لأحاديث الأئمة الأطهار من عترة النبي المختار صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهي كما نرى متوافقة مع الكتاب والعقل والمقتضيات التاريخية، بخلاف تلك القصة الركيكة المتهافتة التي اختلقتها عائشة!

و إن الباحث في هذا الشأن يجد أن لأحاديث الأئمة (عليهم السلام) ما يعضّدها في مصادر أهل الخلاف من أحاديث عائشة نفسها! فإن القوم رووا قصة الإفك على أم إبراهيم (عليهما السلام) مع تعتيم على أسماء الذين قذفوها، وهذا التعتيم كما بيّنا يُشعر بأن لهؤلاء القاذفين منزلة عظيمة عندهم فلذا حجبوا أسماءهم، كما فعلوا مع الذين راموا قتل النبي (صلى الله عليه وآله) باستنفار ناقته من العقبة. وليس أحدٌ أعظم

منزلة عند المخالفين من هؤلاء الأربعة: أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة، فيكون هؤلاء مشتَبَهاً بهم في طور بحث الباحث المحقّق، فإذا به يجد أن عائشة تقرّ بأنها ضاهت قول أهل الإفك حين نفت وجود شبه لإبراهيم بوالده النبي (صلى الله عليهما وآلهما) بقولها: «ما أرى شبهاً»! فيكون هذا قرينة على صحة ما رُوي عن آل محمد عليهم الصلاة والسلام، وتكون الجريمة ثابتة على عائشة على أقلّ تقدير.

هذه هي الحقيقة التي قلبتها عائشة في ما بعد حين ثُنِيَت لها الوسادة لتحدّث بما شاءت من أحاديث وأساطير في ظل خلو الساحة ممن يتمكن من التصدّى لها خوفاً من السلطة، فجعلت المرأة نفسها مظلومة مفترىً عليها في حين أنها هي الظالمة المفترية!



هذا الكتيب مقتبس من كتاب (الفاحشة الوجه الآخر لعائشة) للشيخ الحبيب ويتضمن تفاصيل عن حياة سيدتنا أم إبراهيم مارية القبطية (عليهما السلام) والبهتان الذي تعرضت له.

ومن الله نسأل القبول.

